فاتحة

بسم الله وبه الثقة

دعوت منذ بدأت بالاشتغال فى الصحافة العربية سنة ١٣١٥ ه إلى نبث دفائن المدنية العربية ، وبث خزائن الحضارة الغربية ، وأبرزت هذه الدعوة فيما نشرته فى جميع الصحف والمجلات التى أنشأتها وآزرتها فى مصر والشام من موضوعات فى العلم والاجتماع ، والتاريخ والأدب ، والنقد والتربية . وهأنذا أهدى لقراء العربية نموذجات مما كتبت عسى أن يكون منها لهم فى عصر القوميات عبرة وذكرى ، ولبنيهم وبناتهم فى تأليف وحدتنا الاجتماعية درس وسلوى . ففاتيح كنوز الأجداد التى انتقلت إلى النشء بالارث الصحيح لا غنية لهم عن معالجتها بالفتح لاستمالة مافيها والاستظهار بمعنوياتها ثم بمادياتها لأن هذا الحاضر الذى يحاول بعضهم ، الاقتصار عليه هو ربيب ذاك الغابر ووليده ، بل سليله وحفيده وطريده ، والجمود على القديم هو العقم بعينه ، وقطع الصلة على مع المدنية الحديثة ، مضرة ومعرة . ولا خير فيمن جهلت أصوله . ولم يتخلق بأخلاق جيله وقبيله والله الموفق سبحانه

محمد كرد علي

دمشق) ٦ جمادى الاولى ١٣٤٣
) ٣ كانون الاول ١٩٢٤

obeikandi.com

القديم والحديث (١)

لم يأت على هذه الأمة دور مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث ، وانهزم القديم بضعف القائمين به وقوة انصار الحديث . عنينا بذلك أرباب التقليد ممن يرون السعادة فى الاكتفاء بما تعلموه من آبائهم ، وورثوه عن أجدادهم من العلوم والآداب ، ويعدون ما عداها ضرراً يجب البعد عنه ومحاربته بكل وسيلة ، كما عنينا أرباب التجديد الذين يزعمون أن الاكتفاء بعلوم أهل الحضارة الحديثة وحدها كافية فى رفع شأننا .

نشأت للأمة ناشئة بعد ان كثر احتكاكنا بأوربا فى أواسط القرن الماضي عادت القديم معاداة خرجت فيها عن طور التعقل ، وذلك نكاية بما رأته من دعاة ذلك القديم ، وأكثرهم مثال الجمود والبلاهة ، ونموذج الفساد وسوء التربية ، فقامت تزهد فيهم وفيما يدعون اليه ، تحمل عليهم حملاتها ، وتتحامل عليهم بتمحلاتها ، وكذلك كان شأن انصار القديم مع دعاة الحديث ، يرمونهم بكل كبيرة ، ويسلبونهم كل فضيلة ، ويطعنون بعلومهم إلا قليلا ، ويعدون النافع منها مما لا يضر ولا ينفع

لا خلاف فى أن ملكة الدين والآداب ضعفت فى البلاد الاسلامية لضعف حكوماتها ، والعامل الرئيسى فى كل البلاد هو السياسة ، اذا ضعفت يتبعها كل شئ ، فجهل الحكام والملوك منذ نحو الف سنة هو الذى رفع شأن المنافقين من العلماء الرسميين ، فصار العلم الدينى يتعلمه المرء لا لينال السعادتين ، ويكون عضواً مهما فى جسم المدينة الفاضلة ، بل ليخدم به اغراض أمراء السوء ، ويستولي على عقول العامة ، وتقبل يداه ويكرم بالباطل ، وهذ ماحدا حجة الاسلام الغزالى واضرابه فى عصره وبعده أن ينحوا على فقهاء السوء إنحاءهم على امراء السوء لأنهم يتعلمون علوم الفقة والفتيا ليتقربوا بها فقط من السلاطين ، ويجعلوا من الدين سلاحاً يقاتلون به من يناصبهم فى شهواتهم وأهوائهم . ولقد فضل الغزالى

---

(١) نشرت فى المجلد الرابع من مجلة المقتبس

فى الاحياء وتهافت الفلاسفة من يتعاطون الطب على الفقهاء وقال : ان من يقولون ان علوم الدنيا تنافى الدين يجنى على الدين .

شغلت الأمة زمناً بنفسها فضعفت ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التاتار من العوامل المنهكة لقواها ، ثم قام ملوك الطوائف وفرقوا الشمل بعد اجتماعه ، الى أن جاءت الدولة العثمانية وهى تاتارية لا تقيم للمدنية وزناً ، ولا تعرف لعلوم العمران لفظاً ولا معنى ، قوتها بجندها ، وعلمها فى إرهاف حدها ، وعظمتها ببطشها ، ومجدها باكتساح البلاد ، واخضاع النفوس لسطوتها ، فحاول محمد الفاتح أحد ملوكها أن يجعل من القسطنطينية دار علم ، كما هى دار ملك ، مجاراة لدولة الجراكسة فى مصر والشام ، وأعظم لذلك الأعطيات والهبات ، وانشأ المدارس وحبس الأوقاف ، ولكن ذلك لم يدم إلا بدوامه ، حتى اذا مضى لسبيله عادت الحكومة الى زهدها فى العلوم ، وقد صارت رسمية على عهد المفتى أبى السعود الذى سعى لجعل العلم وراثياً ، وصار ابن العالم يرث أباه ووظائفه ورواتبه ، وان كان أجهل من قاضى جبل . وعالم هذه حاله هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا ، والبلاء العمم على البلاد .

ومع أن الفرس والترك سواء فى العجمة ، فالفرس أقدر من الترك على تلقف اللغة العربية منذ القديم . والعربية لغة الدين لا يبرز فى علومه من لم يتعلمها ، ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم بيانها . وما تراه من حال علماء فارس اليوم واتقانهم العربية وارتقاء علومهم الشرعية ، وانحطاط العربية فى بلاد الترك وضعف ملكة العلوم الدينية فيها ، لا يرجع إلا الى أن ميل أبناء فارس الى إحكام العربية قديم فيهم ، وان الترك بأمرائهم المتبربرين جمدوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما عداها فجنوا على البلاد جناية كبرى

ولما أرادت الدولة أن تنهض وتتشبه بأوربا وأخذت على عهد سليم الثالث تتعلم فنون الحرب والبحر والسياسة وما ينبغى لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع أخذت روح التفلسف تسرى الى الاستانة ومنها سرت الى الولايات ومصر ، فلم يعبأ أنصار القديم بما رأوه أولا ، واحتقروا ذاك السيل الجارف الآتى عليهم من أوربا ، وارتأى بعضهم ان خير ما يقابل به المتزندقون ان يكفروا أو يحرموا

أو يضربوا ، أو يحبسوا أو يهددوا بالقتل أو يقتلوا ، ولم يعدوا لذلك من العدد اللازمة لبث دعوتهم ، وحفظ ملكة الدين فى القلوب ، لتسير مع علوم الدنيا كتفاً الى كتف ، وجاءت أدوار أصبح الوزراء وولاة الأمر إلا قليلا من الطائفة التى نزعت ربقة القديم ، فلم يبق عليها الا اسمه بل كان بعض المتطرفين فى انحلالهم يدعون سراً وجهراً الى عدم التأدب بآداب الدين ، محتجين بما هو ماثل للعيان من فساد القائمين عليه ، وانحطاط المنتسبين اليه

وها قد اصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والأمة شطرين شطر هو الى البلاهة والغباوة ، وشطر الى الحمق والنفرة ، وبعبارة أخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد . ومن الغريب أن معظم المستنيرين بقبس العلوم الأوربية منا لا يرجعون الى آداب دينهم ، ويميلون فى الظاهر والباطن الى أن يكون الدين فقط جامعة تجمع الأمة على مثال الجامعات السياسة والجنسية ، واذا سألتهم عن الحلال والحرام وعما شرعته الأديان صعروا اليك خدودهم وقالوا لك إن الأمة تعيش بحديثها دون قديمها ، وان ذاك القديم ان لم يضرنا الأخذ به فهو لا ينفعنا ، والعاقل لا يقبل الا على ما ينفعه ويعلى قدره

تلك هى شنشنة أنصار الحديث أو الملاحدة والزنادقة الطبيعيين كما يطلق عليهم المتدينون ، وهذه حالة هؤلاء مع أولئك ، وستكون الغلبة لأنصار الحديث اذا لم يقم خصومهم بلم شعثهم على صورة معقولة مقبولة ، وبين هذين الفريقين فريق ثالث اختار التوسط بينهما فلم ير طرح القديم كله ، ولا الأخذ بالحديث بجملته ، بل آثر أن يأخذ النافع من كل شئ ويضم شتاته ، وهذا الفريق المعتدل على قلته لا يقاومه العقلاء من أهل الفريقين الآخرين مقاومة فعلية ، وعامتهما غير راضين عنهم بالطبع ، لأن أكثر الناس يحبون أن تكون معهم أو عليهم ولا وسط بين ذلك .

ولقد كتب الينا أحد علماء المشرقيات فى برلين وهو ممن طافوا بلاد الشرق وسكنوا فيه زمناً ، وانقطعوا لدرس أحواله الاجتماعية وعلومه الأرثية ، كتاباً بالعربية يصف فيه المقتبس وما يجب للمسلمين أن يقوموا به لقيام أمرهم بعد ذلك السبات الطويل قال فيه : —

أما الرسائل التي هي لبها (المجلة) فرأيتها تدور أبداً على حث الناس على درس العلوم المدنية التي تركت في العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الافرنجية الحديثة فيها واحياء الآداب العربية ، وهذا مطابق بحسب اختباري للطريقة الصحيحة لسعادة الأمم ؛ إذ لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ، ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية (الوطنية) وحده ، بل الخير كل الخير في الأخذ من هنا وهناك ، وتعميم الدرس والبحث مع اضرام تلك الشعلة العظيمة التي هي ذات نور ، وذات حرارة ، وذات إنبات ، واعني بها المبدأ الشعبي ، ولنا أن نسميه الشعوبية على شرط أن نجرده من الرائحة غير المقبولة

اجتهد الاسلام والنصرانية أن ينشأ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون أهل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله الا أنهما فشلا . ولقد تنبأ بعض المسلمين بأن الجامعة الاسلامية التي ستكون في أواخر هذه السنة لن تأتي بما يرجوه أكثرهم من تقوية عروة الدين بل ستقوى الاحزاب الشعبية وربما يتسع الخرق بين الجماعات من جهة المذهب الديني . أما أنا فاقول إن تقوية روابط المسلمين مع من حولهم من غير المسلمين المبنية على وحدة التربية والاخلاق والعادات وعلى وحدة اللسان لا تخلو حقيقة من تقوية الدين نفسه ، لأن هذا الاجتماع من شأنه أن يدعو الي نمو عامة التقوى فيزيد من له ميل الى الحياة الدينية اعتقاداً وعملا ، كما يزيد من له ميل الى غير الدين قوة فيما اختاره وعلى هذا فمن مصلحة كل دين أن يكون نصف منتحليه مجتهدين مخلصين ، أكثر من أن يكون الجميع فاترين غير مكثرين بشيء اهـ

هذا ما كتب لنا به العالم الغربي الشرقي منذ أشهر نشرناه ليطلع عليه أنصار القديم والحديث فيعلم الجامدون على مسطور القديم أن لا قيام لأمرنا بغير الاخذ من مدنية أوربا ، ويدرك أنصار الحديث بأن هذه المدنية الجديدة التي بهرتهم بزخارفها وسفاسفها لا تنفعهم وتنفع بني قومهم الا اذا رافقها ما يجملها من علوم الاسلاف وآدابهم ، والامة التي تنزع ربقة قديمها جملة واحدة وتنتقل الى طور آخر دفعة ، قد ينعكس عليها الامر ويلتوي عليها القصد ، ولم تنجح اليابان الا لكونها اقتبست المدنية الغربية ومزجتها باجزاء مدنيتها وهذا سر قول العالم

المشار اليه « لا فائدة من تقليد الاجانب وحده ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية » أي ماورثناه عن أجدادنا من التشبث باهداب الوطنية ، وذكر القديم والحرص عليه

ولنا في الغرب دولتان كبريان هما مثال في اقتباس الجديد والحرص على القديم . فقد شهدنا المانيا الى اليوم تجري في مدارسها وكلياتها على آداب النصرانية المنقحة فلا تسند التدريس فيها الا لرجل عرفت ترجمته وحياته مخافة أن يفسد عليها تربية أبنائها فتكون مدنية دينية أما فرنسا فناهضت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت مناهضتها له في السنين الاخيرة حتى نزعت لفظ الجلالة من المعاهد العامة وأخذت تضيق الخناق على أهل التدين من حملة العلم والاقلام حتى صار المتدين سراً يتجاهر بالانحلال جهراً ليأمن على معاشه ورزقه وسموا هذا حرية ولكن الله يحصي على الأمم ذنوبها كما لا يغفل عن الافراد ، وها قد أخذت المدنية الافرنسية التي بهرت العيون في الزمن الماضي ترجع القهقرى وعلماء الاخلاق فيها يبكون دماً على انبتات شملهم وتراجع عمرانهم ، حتى روى بعض الاحصائيين ان عدد الفرنسيس سينزل في أواخر القرن العشرين الى ثلاثة ملايين لأن المواليد أخذت تنقص عن الوفيات . أما في المانيا فبفضل التربية الدينية والحرص على الاخلاق قبل الحرص على تلقين العلوم فان النفوس تتزايد سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر نسلهم على البلاد المجاورة لهم مع ما هم عليه من المدنية الصحيحة والعلم بالصناعات والفنون ولا غرو فان من خلق الالماني أن يترك من القديم كل مالا ينفع منه أما الفرنسوي فيجرف منه النافع مع الضار ، وشتان بين الخلقين والمدينتين وهاهي النتيجة قد ظهرت للعيان منذ الآن

وبعد فان كل عاقل عرف تاريخ هذه الامة يرى الخير كل الخير في احتفاظها بقديمها وضم كل ما ينفع من هذا الجديد على أن تكون للدين والعلم حريتهما فتكون المعتقدات بأمن من طعن الطاعنين بها كما تجري المدنية على الشوط الذي يراه واذا رأى بعضهم في بعض المعتقدات مالا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالاولى أن يطبقوا العقل على النقل كما هو رأي كبار علماء الاسلام منذ القديم . واذا عجزت عقولهم عن ذلك فالاجدر بهم أن يأخذوا بعض القضايا

بالتسليم ، ويتركوا العالم حراً يسير وحده دون أن يعوقه عائق ، وما نخال كل عاقل الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله أعلم

الشعوبية (١)

يقوى تفاخر كل عنصر بعنصرهم ، وأهل كل جنس بجنسهم كلما كانوا أقرب الى الهمجية والعصبية الجاهلية . جاء الاسلام فكان من أعظم اصلاحه اسقاط دعوى الجنسيات أو القضاء على التفاخر بالآباء والاجداد فساوى بين العربي والفارسي والاحمر والاصفر والابيض والاسود وكانت قاعدته العامة أن لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى

والظاهر أن دعوى الشعوبية أي عدم الاستعداد بالعرب وتفضيل العجم عليهم دخلت بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط في خدمة الدولة الاسلامية فنشأت منها المداوات بين العرب أهل الدولة وبين العجم كما كانت تنشأ في هذه البلاد بين تركي وعربي كلما اشتد الاول في ارهاق الثاني

سألنا استاذنا الشيخ طاهر الجزائري عن الشعوبية فكتب الينا ما يأتي « اما الزمن الذي ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرني فيه شيء . والوقوف على أوائل الاشياء من أصعب المسائل وأدقها . الا ان الذي ظهر لي أن ذلك حدث بعيد عصر الخلفاء الراشدين لوجود الداعي الى ذلك وهو التفاخر بالجنس الذي هو من عادات الجاهلية التي أتى الدين بابطالها . ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي في أوائل الأمة زال عنه الشك في هذه المسألة ، ولا يدخل في هذا الامر بحث المؤرخ عن خصائص الاجناس مما يقصد به الوقوف على الحقائق : فان هذا نوع آخر الا أن من بحث عن أحوال الامم وفي النظر حقه تبين له أن العرب في الجملة لا تساميهم أمة البتة

« وأظن أن لا بد ان تؤلف بعد حين كتب في خصائص الأمم وكتب في خصائص البلاد ، كما ألفت كتب في خصائص اللغات ، وتجعل من الفنون التي يعنى

(١) نشرت في المجلة الرابع من مجلة المقتبس